شَرْحُ كِتابِ الرِّقاق

مِن صَحيحِ البُخارِي

أ. أناهيد السميري

اللقاء الخامس

ألقي في ٥ رمضان ١٤٣٥ هـ

ما تم دراسته من أبواب:

٧) باب مَا يُحْذَرُ مِنْ زَهَرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ.
من حديث ((إِنِّي فَرَطُ لكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ..))

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله عز وجل حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله أن يكون مجلسنا هذا من المجالس التي تحيطه الملائكة ويذكرهم الله عز وجل فيمن عنده.. اللهم آمين.

إن شاء الله نكمل اليوم ما ابتدأناه أمس من الباب السابع في صحيح البخاري كتاب الرِّقاق: "بَاب مَا يُحْذَرُ مِنْ زَهَرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا".

أولًا نراجع ما مضى دراسته من أول الكتاب.

⬅ بدأ البخاري كتاب الرِّقاق وتبين لنا ما معنى الرِّقاق وأن كلمة الرِّقاق هي جمع كلمة رقة، بدأ الكتاب بـ "بَاب الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ" ، تضمن الباب حديثين:

حديث: " نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ"

وحديث: " اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ".

وفهمنا ما جمع الجملتين من كلام البخاري وأن الصحة والفراغ نعمتان يستغلان في شأن الآخرة لأن الآخرة هي العيش الحقيقي.

⬅ ومادام العيش الحقيقي هو عيش الآخرة فما هي الدنيا؟ فأتى بباب قال: "بَاب مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ" وهنا أورد آية الحديد التي فيها تصوير للدنيا وأورد الحديث الذي فيه "مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيهَا"، إذًا لا عيش إلا عيش الآخرة والدنيا هذه حالها.

⬅ ثم كيف أكون في الدنيا إذًا؟ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر:"كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" فتبين لنا حال الدنيا وتبين لنا كيف يجب أن نكون فيها.

⬅ ثم أتى خبر عن الشيء الذي يمنعنا من أن نكون بهذه الصورة، يعني"كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" هذا مريح للنفس لو أنك تريد الآخرة لكن ما الذي يمنع الناس غالبًا من أن يكونوا بهذه الحال؟ قال: "بَاب فِي الْأَمَلِ وَطُولِهِ" فطول الأمل هو الذي يسبب للإنسان عدم القدرة على أن يعيش كغريب أو عابر سبيل.

⬅ هذا الأمل سيطول مع الإنسان لكن لابد أن يكون الإنسان حاسمًا مع نفسه ولذلك أتى في الباب الخامس قال: "بَاب مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ" يعني قد يقبل الأمل في الشباب في أوله لكن لما يتقدم الإنسان في العمر لا يقبل منه طول الأمل، وقد تناقشنا في الباب في أمرين هل الأربعين أم الستين هي الإعذار فوصلنا إلى نتيجة من كلام أهل العلم أن الأربعين بداية الإعذار والستين هذا تمامه وبيانه، خصوصًا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن أعمار أمته بين الستين والسبعين وقليل من يجاوز ذلك.

⬅ لما وصلنا إلى هنا وتبين أن الله عز وجل قد أعذر من بلغ الستين يعني أقام عليه جميع المعاذير لا عذر له أتى: "بَاب الْعَمَلِ الَّذِي يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تعالى" وربما هنا ينقطع تسلسل القارئ إذا لم ما قرأت كلام أهل العلم على هذا الباب، يعني نحن وصلنا إلى الستين كأنه يقال قد يقبل الأمل في بداية الحياة لكن لا تمد الأمل، ولا تظن أن هذا الأمل ينقطع بمجرد كونك كبرت في السن لأنه يكبر الإنسان ويكبر معه حب الدنيا وحب المال وطول الأمل

إلى آخر ما ورد في الأحاديث، أتى هنا وقال: "بَاب الْعَمَلِ الَّذِي يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تعالى" ماذا كان يقصد؟ كان يقصد أن الإعذار بعمر الستين لا يعني انقطاع باب التوبة والعمل الصالح، لأن العبد لو بلغ هذا العمر وهو على معصية ثم تاب قبل الله توبته وتاب الله على من تاب، ولذلك أورد حديث: "لَنْ يُوَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ" بدون سن معينة، فإذا رأى الإنسان كفارًا أو عصاة بلغوا الستين فكأن البخاري يقول لا تظن أن إعذار الله لهم يعني عدم قبول العمل منهم بعد ذلك إنما عدم قبول العمل بالشروط المعروفة وهي أن يغرغر أو أن تشرق الشمس من مغربها.

⬅ ثم أتى الباب السابع؛ الله عز وجل قد أعذر لمن بلغ ستين عاما، ماذا يفعل الإنسان مع نفسه؟ باب مَا يُحْذَرُ مِنْ زَهَرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ. ولا يدخل في التنافس لأن الدخول في التنافس هو الذي يسبب للإنسان انقطاع شأنه في الآخرة، يعني عدم الاهتمام بالآخرة سببها التنافس في الدنيا.

ثم في هذا الباب درسنا حديث واحد فقط وهو الحديث الذي فيه أن أبا عبيدة رضي الله عنه أتى من البحرين بالجزية، والصحابة قد تسامعوا بذلك فتعرضوا له بعد صلاة الفجر وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ"

النبي صلى الله عليه وسلم الرؤوف الرحيم بأمته قال لهم ليس الفقر الذي أخشاه عليكم وهو بمنزلة الوالد لأولاده، ليس هذا الذي أخشاه عليكم ما الذي يخشاه عليهم؟

يخشى عليهم أن تبسط عليهم الدنيا، وتبسط بمعنى تفتح عليهم الدنيا، وهذا ما يخشاه حصل مع من كان قبلنا وما كان من الناس قبلنا إلا أنهم تنافسوا وألهتهم وأهلكتهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم خاف على أمته أن تبسط عليهم الدنيا وسيتبين من الحديث الذي بعده أنه ستبسط الدنيا وأن الخبر أتى للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم خاف أن تبسط فيحصل المنافسة ويحصل الالتهاء.

وهذا يبين كما درسنا في التفسير في آية آل عمران أن ليس كل من بسطت عليه الدنيا شرط أن يحصل له التنافس والالتهاء فإن الناس قد انقسموا قسمين كما ذكر الشيخ السعدي في ذلك قال:

◀ ناس جعلوا هذه الدنيا مقصدهم ومن ثمّ تنافسوا وألهتهم ومن ثمّ كانت النتيجة أهلكتهم.

◀ وهناك أشخاص جعلوا الآخرة هي مقصودهم واستعملوا المال كوسيلة إليه، فلما استعملوا المال كوسيلة لذلك كان نِعم المال الصالح للعبد الصالح انتفع به ووصل به إلى آخرته، وذكر الشيخ توصيف دقيق قال: صاحبوها -أي صاحبوا هذه النعم- بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم.

بهذا نكون انتهينا من هذا الحديث لهذا الباب وننتقل إلى الحديث الذي بعده:

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ أَبِي الْخَيْرِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: ((إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا)).

هذا الخبر من أعلام نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأن فيه خبر أن خزائن الأرض ستفتح على المسلمين وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي يخافه على المسلمين.

نبدأ من الجملة الأولى: "إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ" المقصود بالفرط هو من يسبق أهله وجماعته إلى الحوض فيصلحه لهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم منزلته من منزلة أمته أنه فرط لهم بمعنى أنه سابقهم يوم القيامة إلى حوضه صلى الله عليه وسلم ومستعد لأمته أن يمدّ لهم فيسقيهم صلى الله عليه وسلم، إذًا هذه صفة للنبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة لأمته.

"وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ" يعني يجتمع للنبي صلى الله عليه وسلم أنه متقدم لأمته على حوضه صلى الله عليه وسلم ينتظرهم ليسقيهم، ويجتمع له صفة أخرى أنه صلى الله عليه وسلم شهيد على أمته في أعمالهم.

"وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ" فهو صلى الله عليه وسلم الآن على منبره لكن كشف له الحجب فنظر إلى حوضه في تلك اللحظة التي كان يخاطب فيها صحابته رضي الله عنهم، وهذا يدل على أن الجنة والنار وما في الدار الآخرة موجود وأن العباد سيردون إليها ويدخلونها كلها بعملهم.

الشاهد هنا: "وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي" يعني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي هذا لا يناقض حديث: "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ" إنما المقصود أني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي جملة واحدة فتتحول الأمة كلها إلى مشركة بعد النبي صلى الله عليه وسلم بل ستبقى الطائفة المنصورة التي لا تقع في الشرك "وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا".

إذًا هنا خبرين:

الخبر الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعطي مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتح خزائن الأرض وهذا من أعلام نبوته أن أمته ستفتح الأرض وسيأتيها من خزائن الأرض ومن بركات الأرض ومن النعيم الموجود في الأرض، ثم لما يفتح هذا للأمة لن يكون هذا خير لها إلا إذا ابتعدت عن التنافس فيه، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما أتاه خبر أن الأمة سيفتح لها مفاتح خزائن الأرض كان خائفًا وليس مستبشرًا قال: "وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا" فعُلم أن إعطاء أمته مفاتيح خزائن الأرض خبرًا لم يكن إلا مخوفًا للنبي صلى الله عليه وسلم، يعني أخافه أن يحصل من هذا الانفتاح على المال وعلى خزائن الأرض التنافس لأن طبع بني آدم كما مر معنا حب الدنيا وطول الأمل "لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ".

يأتي الحديث الثالث في نفس الباب:

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ)) قِيلَ: "وَمَا بَرَكَاتُ الْأَرْضِ؟"، قَالَ: ((زَهْرَةُ الدُّنْيَا))، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: "هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟"، فَصَمَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى ظَنَنَّتَ أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ فَقَالَ: ((أَيْنَ السَّائِلُ؟)) قَالَ: "أَنَا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ"، لَقَدْ حَمِدْنَاهُ حِينَ طَلَعَ ذَلِكَ، قَالَ: ((لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرَةِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ)).

"هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟" اسمها بركات الأرض والمال اسمه خير، فهل يأتي الخير بالشر؟

فَصَمَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى ظَنَنَّتَ أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ بمعنى أنه يوحى إليه.

ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ فَقَالَ: "أَيْنَ السَّائِلُ؟، قَالَ: "أَنَا"، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: – يعني الراوي– لَقَدْ حَمِدْنَاهُ حِينَ طَلَعَ ذَلِكَ يعني هو لما سأله أولًا كأنه وقع في نفوسهم حرج من سؤاله لأن النبي صلى الله عليه وسلم صمت فخافوا أن يكون غضب صلى الله عليه وسلم فلما كان سؤاله سبب للوحي فحمدوه على أنه سأل وحمدوه على أنه أجاب؛ أن السائل قال "أنا".

النبي صلى الله عليه وسلم في أول الحديث قال: "إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ" يعني هذا يؤيد السابق أن النبي صلى الله عليه وسلم يخاف على أمته بركات الأرض وزينة الأرض وزهرتها، لما قالوا: "وَمَا بَرَكَاتُ الْأَرْضِ؟"، قَالَ: "زَهْرَةُ الدُّنْيَا"، هي سميت بركات الأرض والمال يسمى خير فالرجل يريد أن يجمع بين الأمرين "هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟"، فأوحي للنبي صلى الله عليه وسلم فكان هذا كلامه.

قَالَ: "لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ لأن في الأصل الخير لا يأتي إلا بالخير ثم مَثل هذه الدنيا من أجل أن نتصورها..

"إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ" يعني أن هذا المال في الدنيا يعبر عن النعمة، الخضرة التي تبهج العين والحلاوة التي يذوقها اللسان فتعجبه.

"وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ" الربيع المقصود به النهر الصغير.

"يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ" هنا تمثيل أن هناك دابة من التي يعرفونها ترعى حول هذا الربيع يعني حول هذا النهر، والنهر ينبت حوله من المزروعات ما يعجب هذه الدابة.

تنقسم الدواب إلى قسمين:

◄ قسم تأكل تأكل تأكل حتى تقع في البشم يعني تمتلئ بطنها حتى يقتلها الأكل، قال: "كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ" أو يكاد يقتلها حبطًا، حبطًا يعني الموت بسبب كثرة الأكل، مثل التخمة لكن تعدت التخمة وصلت إلى حد أن هذا الأكل يميتها حبطًا أو يكاد يميتها.

"إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرَةِ" دابة لكن فطنه أكلت الخضرة، قيل الخضرة نبات لكن ليس في مستوى ما ينبت الربيع لكن أقل منه، الخضرة نوع من أنواع النبات، أكلت منه هذه الدابة الأخرى لكن من جهة جودته وحلاوته أقل مما ينبت الربيع هذا قول من الأقوال.

هذه أكلت حتى امتدت جنبيها، ماذا فعلت؟ لم تبقى تأكل وتأكل وغرها طعمه الحلو وحاجتها، لما امتلأت ذهبت تستقبل الشمس والشمس تساعدها بالحرارة فتذيب هذا الطعام.

"فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ" اجترت يعني من الحيوانات التي تجتر يعني المقصود به الجمل، أعادت أكلها مرة أخرى وثلطت وبالت يعني عملية الإخراج، أخذت ما تحتاجه وثلطت وبالت، لما فعلت هذا: " ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ".

فإذًا هناك دابتين:

◄ الدابة الأولى أكلت أكلت أكلت حتى قتلها الأكل.

◄ والثانية كانت أكثر فطنة أكلت وتخصلت وأكلت وتخلصت، فلما تتخلص ماذا يحصل لها؟ تستطيع أن تأكل ولا يميتها الأكل.

فإذًا هذان صنفان من الناس!

"وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ" حلوة مثل حلاوة هذه النباتات بالنسبة للبهائم.

"مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ" يعني هو ينفعك ويكون خير لك لكن لما تأخذه من طريقه الصحيح وتضعه في طريقه الصحيح.

"وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ" ثم الأكل ماذا سيفعل به؟

◄ الأولى كانت تأكل ولا تشبع إلى أن أكلت أكلت فقتلها الأكل أو كاد أن يقتلها، فالذي يطمع في الدنيا يصل الأكل الذي يأكله من المال ويقتله، وكأن هنا إشارة أنه يقتل قلبه فلا يشعر بحق ولا يشعر بباطل فيموت القلب أو يكاد يموت بسبب حب الدنيا والتنافس عليها.

◄ أما الثاني: فهذا إن أخذ من زينة الدنيا لكن كان حريصًا "مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ".

وهناك الصنف الثالث: الذي لم يصاحب الدنيا أبدًا إنما أخذ من الدنيا على قدر ما يحتاج فقط من الضروريات والحاجيات وترك التنافس فيها وسيأتينا إن شاء الله الكلام عنه في نصوص أخرى.

ثم ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثل قال: "إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ" يعني المال شبيهة بالنبات الذي اسمه خضرة، هذه الخضرة حلوة تُغري البهائم بأكلها، "وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ" يعني النهر.

"يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ" لأن طعمها يغري البهائم فتأكل تأكل تأكل حتى تصل إلى حالة الجشم فيقتلها أو يكاد يقتلها، إلا دابة آكلت الخضرة وهذه الخضرة أقل من الأولى من جهة جودتها، أكلت حتى امتد جانبيها من كثرة الأكل، لا بأس أكلت وشبعت لكنها سكنت، استقبلت الشمس فسكنت والشمس حارة فتساعدها على الهضم والقيام بالعملية "فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ" يعني استفاد بدنها وأخرجت ما أخرجت.

تخيل الصورتان:

◄ الأول أخذ المال وطمع وسيأكله ويأكله من أي طريق.

◄ الثاني أخذ المال وانتفع به حتى شبع، ثم أنه لا يلهث لكن مثل هذه استقبلت الشمس وسكنت، فعنده حالات طويلة من السكون، يعني هذه الدابة بقيت تأكل وتأكل إلى أن ماتت، قامت بالأكل ثم استقبلت الشمس، والذي يعرف حال الحيوانات يعرف أن هذه من أحسن أحوال الحيوان أنه بعدما يأكل ويشبع يستقبل الشمس ويسكن ويكون في أحسن حال له.

هذا مثل الإنسان الذي يسعى ويجري وراء المال لكن عنده أوقات يقتطعها من أجل طاعة الله والهدوء والسكون فلا تجده يلهث يلهث، المهم ماذا فعلت بأكلها؟ "فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ" ماذا يفعل الإنسان؟ يأكل ما يحتاج ويخرج الباقي، فالتشبيه هنا عجيب بيان أن المال الزائد عن حاجتك كأنه مثل مخرجات الدواب، يعني من جهة كونه لا ينفعك، من جهة كونه كالقاذورات باقية عندك، ثم لا مانع أن يعود فيأكل مرة أخرى والنبي صلى الله عليه وسلم شبه المال بالحلوة أي انتاج الأرض: "وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ".

هذا الحديث خاصة يحتاج أن نعيده من أجل أن نتصور ونحفظ ألفاظه أيضًا من أجل أن يكون المثل واضح لنا في تشبيه آكل الدنيا والمتلهف عليها كهذه الدابة التي أكلت حتى ماتت أو كادت تموت.

وهكذا قلوب الخلق انشغلت بالدنيا واللهث عليها والجري حتى ماتت قلوبهم أو كادت تموت، أما الثاني فيستيقظ يعني حتى لو دخل في الدنيا يرد نفسه إلى حالات من السكون ليرد قلبه لمعرفة هدفه وغايته ولا يكن ممن يجري ولا يدري ما يريد فتصبح الدنيا أكبر همّه نعوذ بالله أن تكون الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَمْرَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي زَهْدَمُ بْنُ مُضَرِّبٍ قَالَ: سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))، قَالَ عِمْرَانُ: فَمَا أَدْرِي قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ قَوْلِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ((ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ)).

المقصود بهذا على وجه العموم أن خير القرون القرن الذي كان مع النبي صلى الله عليه وسلم والمقصود أنه من جهة عدم لهفتهم على الدنيا وإقبالهم على الآخرة، ورجاؤهم رضا الله عز وجل، وزهدهم فيما في أيدي الناس وتعلقهم بما في يدي الله، خير القرون كان قرن النبي صلى الله عليه وسلم ثم القرن الذي يليه كان بمثله في هذه الأمور وأقل ثم القرن الذي يليه كان مثله وأقل إلى أن أتت قرون هذا طبعها أو هذا مسلكها.

هذه كلها إشارة إلى ضعف الإيمان في قلوبهم وعدم وجود الخوف من الله عز وجل الذي يحملهم على التصرفات السليمة.

- "يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ" يعني لم يطلب منهم الشهادة. يتسرعون في الشهادة لأي أحد سواء تحروا الحقيقة أو لم يتحروها، ويكون أحيانًا أنهم أصلًا لم يطلبوا من الشهادة لكن من التسرع وحب الدنيا.

الآية التي درسناها أمس في النساء نموذج من هذه النماذج لما قال الله عز وجل: ﴿وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ فبعض الناس بسبب حرارة العلاقة بينه وبين غيره وبسبب الحمية حمية الجاهلية يرى صاحبه وقد ارتكب إثمًا أو ممنوعًا أو خطأً ووقع في ورطة من جهة اكتشاف الناس له أو اكتشاف المسؤولين عنه فهو يسارع بدون تفكير للشهادة له وبتزكيته وهو أصلًا لم يطلب للشهادة وهو في نفس الوقت يشهد شهادة زور ويكون للخائنين خصيما، والله عز وجل أمرنا أن لا نجادل عن هؤلاء الخائنين وللأسف هذه الصفة كثير من الناس يرتكبوها وهي كبيرة من كبائر الذنوب، يرتكبوها ولا يشعرون إلا أنهم ينتصرون وحمية لأحبابهم وأصحابهم إلى آخره.

- "وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ" المقصود في ذلك أنهم قليلي الأمانة، قد تكون الأمانة والخيانة في معاهدة الله عز وجل، فكلمة الأمانة ضاقت عند ناس كثيرين، من الأمانة طاعاتنا وعباداتنا، من الأمانة التي نؤتمن عليها قلوبنا وتزكية نفوسنا، هذه كلها أمانات قد وكلت إلينا، وهؤلاء يخونون ولا يؤتمنون يعني يخونون أنفسهم كما ورد في آية النساء ويخونون غيرهم فلا يزكوا أنفسهم كأمانات ولا يقوموا بحق غيرهم.

- "وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ" والمقصود هنا سواء كان النذر الشرطي يعني النذر الذي اشترطوه وهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنْ الْبَخِيلِ" يأتي أحد يقول لو فعل الله لي كذا أفعل كذا وهذا، مذموم إنشاؤه، لكن من الواجب أداؤه، فهذا إن كان يقصد هذا النذر، أو هناك نذور أخرى وهو كل ما كلف به العبد يختبر من النذور.

أيضًا يعتبر من النذور ما دخل الإنسان فيه من الطاعات المختارة، مثلًا إنسان يدخل بنية الحج متمع فيكون من لوازم هذا الحج أن يذبح فهو يترك الذبح ويستهين به، أو من لوازم الحج أن يطوف مثلًا طواف الوداع أو يطوف كذا وكذا فهو لما دخل النسك كأنه دخل في نذر صحيح هو كان في حلّ منه قبل دخول النسك لكن لما دخل النسك أصبح لازمًا له كمن نذر يجب عليه الوفاء، مثله العمرة يعني يأتي أحد من بلده وقد دخل في نسك العمرة لما يوصل هنا لأي عارض بسيط يخرج من العمرة بدون تفكير، أنت الآن من قبل أن تدخل في نية العمرة كانت ذمتك خالية ليس هناك شيء يلزمك، مجرد دخولك وتلبيتك يلزمك إتمامها كاملة.

ولذلك من الصفات في هذا الزمان الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون في كثير من الطاعات والعبادات ويدخلوا هذا الدخول كأنهم نذروا يعني ليس شرطًا أن يقولوا بألسنتهم: نذرنا لله أن نفعل بل يكفي أنهم عقدوا العزم على الدخول، دخولهم هذا يأتي وراءه عدم التوفيق، هذا كله سببه الطمع في الدنيا وحبها والالتهاء بها، لأن أي عارض بسيط يصيب الإنسان عند هؤلاء يسبب لهم عدم الوفاء بالنذر.

من ذلك أيضًا ما تجده فيما نسميه بالأعمال التطوعية؛ بمعنى يخدموا بها المجتمع، برنامج يريدوا به مصلحة الناس، افترضي في حي يريدوا أن يطعموا في المسجد إفطار صائم اتفقوا النسوة أنهم يطبخوا ويرسلوا إلى المسجد واتفقت معهم وعدوا أنفسهم ورتبوا أنفسهم ووعدوا إمام المسجد بعدما واعدوه وكل شيء في نصف الشهر وجدوا أنفسهم تعبانين وتركوا العمل ثم يقولوا لك ما على المحسنين من سبيل! لا ليس هنا ما على المحسنين من سبيل إنما هنا كونك ألزمت نفسك بالعمل حتى لو كان تطوعي أنت عند الله كأنك نذرت لأن الدخول في العمل وإلزام نفسك به ووعد غيرك به حتى لو كان في منشؤه صدقة لكن لما يصبح إلزام وتقول للناس أنكم رتبتم أنفسكم أنا سأعطيكم أنا سأفعل لكم سيكون هذا بمثابة النذر في حق صاحبه.

المسألة فيها تفاصيل كثيرة والمقصود عموم السلوك فلو طرأ عليه أمر هذا أمر آخر تمامًا، كون الإنسان أتاه ما يعذره غير أنه هو كسل عن العمل وقرر أنه يترك والناس ينتظرونه، فهذا بعيد تمامًا عن مفهوم ما على المحسنين من سبيل، ما على المحسنين من سبيل إن بذلوا وأعطوا فلم يستطيعوا، لا أن يوعدوا ثم يخلفوا.

والمشكلة أننا لسنا مقدرين النتيجة التي ستكون علينا في نفوسنا لأن الله عز وجل لما ذكر في سورة التوبة ذلك الذي عاهد الله ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ يعني بالتأكيد والقسم ثم ماذا فعل هذا الذي وعد أن الله لو أتاه الله من فضله سيتصدق ويكون من المحسنين ويفعل ويفعل؟ خلف وعده بعدما أعطاه ربه، ماذا قال الله؟ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ معنى ذلك في موقف مثل هذا الموقف توعد فيه وتقول لو الله عز وجل مكني سأفعل وأفعل وأفعل ثم لما يمكنك الله تعود إلى الوراء طمعًا في الدنيا، لأن هذا لماذا عاد للوراء بعدما أعطاه الله؟ طمعًا في الدنيا وحبًا فيها فهم يوعدون ولا يوفون.

هذه الصفات خطيرة التي وصفت في الحديث تحتاج كثيرًا أن نعود فنكررها.

- "وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ" المقصود به من كثرة حب الدنيا وعدم الاهتمام بالإنفاق في سبيل الله فيجد الإنسان نفسه يغطي فقط حاجاته، يعني كلما اشتهى اشترى، فهو كالعبد بالنسبة لنفسه يطيع ولا يردها أبدا.

نأتي للحديث الذي بعده:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ)).

المقصود نفس الأمر من حب الدنيا والتعلق بها وإرادة المال وإرادة المكانة في الدنيا، لا يبالون بشيء، أسهل ما عليهم شهادة الزور إن كانت شهادة الزور هذه ستوفر لهم بعدها أموالًا ولذلك: "تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ وَأَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ".

وصف تسرعهم يعني يحلف ثم يشهد أو يشهد ثم يحلف، بمعنى أنه لما يأتي أحد يشهد لأحد يقول أقسم بالله أن فلان فعل كذا وكذا، لو كان صادقًا شهادته ستكون في مكانها، لكن هؤلاء من أجل الدنيا يتسرعون في الشهادة لمجرد ما يأتي من ورائها من أموال ومن الدنيا –نعوذ بالله من الطمع–.

هذا كله في وصف أحوال الناس لما يتأخر بهم الزمان فتتباعد عنهم آثار النبوة ويتباعد عنهم العلم فيقلّ علمهم وإيمانهم.

"خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ" فلما بعدوا عن آثار النبوة يعني عن العلم، قلّ الإيمان والدنيا مفتوحة فأصبح الطمع كله فيها، لأن الإنسان يكفيه لو آمن بالقضاء والقدر ما سعى إلا على ما يرضي الله.

وهذه المسألة نعيدها ونكررها من أجل أن تبقى مستقرة في الوجدان إن شاء الله كما ينبغي، الإنسان لو كان عنده إيمان خاصة بالقضاء والقدر، كان توقف عن اللهث على الدنيا ومدّ اليد إليها من المحرم، لماذا؟ ما علاقة القضاء والقدر بذلك؟ بين الله هذا الأمر بوضوح في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ المعنى أن الله عز وجل جعل الخبر عن تقسيمه الأقدار والأرزاق للناس سببًا لسكون الناس وعدم لهثهم ودخولهم في الحرام، وليس سببًا لأن لا يتحركوا! فلا أحد يقول مادام فيه إيمان بالقضاء والقدر إذًا ما يقدره ربنا سآخذه إذًا سأجلس في مكاني!

أولًا أن الله عز وجل خلق فينا طبيعة نفسية فطرة سوية أنه لما نحتاج شيء لابد أن نتحرك له، هذا متفق عليه ولا يتغير ولا تظن أبدًا أن إنسان يتغير؛ لأنك لو تريد تقول هذا الكلام جرب في المغرب لا تمدّ يدك ولا تأخذ تمرة وقت الفطور ولا تشرب ماء وانظر الإيمان بالقضاء والقدر كيف سيفعل لك! هذا لا يحصل بل النفوس السوية مفطورة على الحركة الطبيعية، فهذه الحركة الطبيعية ليس فيها خلاف أبدًا ولا يضادها إيمان الإنسان بالقضاء والقدر.

بقي ماذا أستفيد بالقضاء والقدر في السكون؟ كيف أسكن؟

نضرب مثال من أجل أن نتصور هذا الأمر جيدًا؛ لك أن تتصوري أنك تريد أن تشتري هذا الشيء، وهذا الشيء الذي تريدي تشتريه له طريق للوصول له من اليمين من حيث يرضي الله ومن اليسار من حيث يغضب الله، يعني هذا الشيء من أجل أن تملكيه في أي وضع له طريق من اليمين مما يرضي الله فتحصل على المال فتشتريه، وله طريق من اليسار، كالسرقة، الربا، أي طريق من الطرق المخادعة للناس.

عندنا فرضيتان لا ثالث لهما إما أن الله كتبه لك أو لم يكتبه الله عز وجل لك، فلنبقى على فرضية أن هذا الشيء قد قسم لك يعني ستملكه، لما تأتي لهذا الشيء الذي قسم لك من جهة اليمين في النهاية سيتحقق لك أمرين:

الأمر الأول أنك تحصل عليه فتمتع في الدنيا.

والأهم منه أنك سرت من جهة اليمين فرضي الله عنك ولم تكن ذاك الذي تسبق يمينه شهادته ولا شهادته يمينه ولا تظهر فيهم السّمن ولا هذه الصفات.

نأتي بالفرضية الثانية وهو أن يكون الله لم يكتبه لك إن سرت لليمين ووصلت فلم تجده ماذا سيحصل؟ أنت من نعمة الله عليك أن اوقع في نفسك رغبة في هذا الشيء الذي لم يكتب لك ووفقك أن تسير من اليمين، صحيح أنك لم تحصل عليه لكنك حصلت على الأجر من جهة سيرك من اليمين.

إذن عندي فرضيتان وعندي طريقان؛ لو الشخص أتى لشيء، كتب له من اليمين سيأخذه ويكتب له الأجر، أتى لشيء لم يكتب له من اليمين هو أصلًا لم يكتب وهو مطمئن أن لا أحد نزع منه شيء لكنه سار من الطريق الصحيح فوصل إليه، وصل إلى شيء لم يكتب له لكن كتب له عند الله الأجر.

نرى بالعكس من اليسار؛ هذا شخص كتب له هذا الرزق وأتاه من اليسار وإن حصّله لكن وزره عليه سواء رابى أو سرق أو غيره، هذا على فرضية أن الشيء كتب له، لكن على فرضية أن الشيء لم يكتب له سيسير من اليسار ويأخذ الآثام ويسير من هنا ويجد الحسرة أنه ليس مكتوبًا له.

وقد ورد في بعض الآثار عن سبط النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل مسجد ورأى فقيرًا عند الباب فوضع سوطه عند باب المسجد ونظر في الفقير فعقد العزم أنه لو خرج أعطاه خمسة دنانير ودخل صلى، ثم خرج فما وجد سوطه، ثم نزل السوق يبحث عنه فوجده في يد هذا الرجل الفقير الذي كان بجانب المسجد، فسأله سوطك؟ قال: نعم، قال: بكم تبيعه؟ قال بخمسة دنانير، يعني هذه الخمسة دنانير التي كان عاقد العزم على أن يعطيه إياها أخذها، وصل له رزقه لكن من جهة الحرام.

معنى ذلك أن الإيمان بالقضاء والقدر لو قوي في القلب لانكف كثير من الناس عن سلوك الطريق الحرج الذي حرمه الله ولانتهت مسألة الربا ولانتهى مسألة معرفة الناس أن ما قسم لهم سيأتيهم.

ولا يأتي أحد يقول معناه لا نسعى؟!

الله عز وجل لما فطر الخلق فطرهم على مجموعة تصرفات ونوازع وحركات لا ينفكوا عنها أبدًا، يعني واحد عاقل لما يحتاج شيء لابد أن يسعى له، يقول لك أنا أؤمن بالقضاء والقدر ولن أتحرك ولا يريد يسير له وليس له نفس مشتهيه، ولا تصدق أنه مؤمن بالقضاء والقدر لأن الإيمان بالقضاء والقدر لا يمكن أن ينازع فطرة خلق عليها الخلق.

الله عز وجل في سورة الحديد وخصوصًا أن سورة الحديد كانت في الإيمان والإنفاق فمن أجل أن يسكن نفوس الناس في الطمع من الدنيا قال لنا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني كل شيء قدّر لكنه غيب عليك ولما كان غيب ألقى الله في قلبك الرغبة فيه، أنت ستسير النظر كله من أين جهة ستسير، إذا قدّر لك هذا الشيء ما عندك إلا طريقين، سنفترض أنه قدّر أو لم يقدر فقال الله عز وجل ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ يعني وصلت وبذلت ومشيت في الطريق الصحيح وما وجدته؟ لا تأس على ما فاتك، لكن لماذا يقع في قلبي الرغبة فيه مادام لم يكتب؟! من أجل أن يكتب لك السعي الحلال، السعي الصحيح فترتفع درجات عند الله ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

والشيء الثاني ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أنت لما تسعى وتصل أصلًا التوفيق من الله، هو قد كتب لك وسعيك هذا إنما عطية من الله، أهم شيء الطريق الذي تختاره وأنت تسير، وأعلم أن الاختيار ليس بهذه السهولة أن يأتي الإنسان ويقول أنا دائمًا سأختار طريق الحق، يأتيك من القواطع والفتن والأمور التي تجتمع عليك بحيث أنك يشتبه عليك الحق والباطل، وكلما زاد إيمان العبد كلما زادت عليه البلايا والاختبارات.

لكن المقصود أن هؤلاء لما يتباعدوا عن زمن النبوة ابتعدوا عن العلم الذي هو مصدر الإيمان، فلما ابتعدوا عن العلم الذي هو مصدر الإيمان تفلت منهم السلوك الحسن.

فمن أجل أن نربي مجتمع وأبناء يكونوا أمينين عكس الصفات التي مرت هنا، ولا يخونون ويوفون بنذورهم ولا يكون في نفسهم أطماع من أجل أن نربي جيل مثل هذا علينا أن نبث في نفوسهم العلم، والعلم المقصود به هنا العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره يعني أركان الإيمان، فبُعد للناس عن العلم يعني بُعد الناس عن السلوك الصحيح، فالعودة إلى السلوك الصحيح ليس مجرد تدريب على السلوك الصحيح لأن التدريب على السلوك الصحيح سيأتي مثيله وشبيهه لكن تختلف صورته ويخدع به الابن لكن لما يكون مليء بالإيمان سيعرف حقائق الأمور ويختبرها.

حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ مُوسَى حَدَّثَنَا وَكِيعٌ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ عَنْ قَيْسٍ قَالَ سَمِعْتُ خَبَّابًا وَقَدْ اكْتَوَى يَوْمَئِذٍ سَبْعًا فِي بَطْنِهِ وَقَالَ: "لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِالْمَوْتِ إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَضَوْا وَلَمْ تَنْقُصْهُمْ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ وَإِنَّا أَصَبْنَا مِنْ الدُّنْيَا مَا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ".

هذا كلام خباب وهو ممن كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ومر مع النبي صلى الله عليه وسلم بأحوال كانت العسرى فيها أكثر من اليسرى ثم مات النبي صلى الله عليه وسلم ومات كثير من الصحابة الكبار وفتحت الدنيا كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم وكما سمعنا في الأحاديث الأولى.

لما فتحت الدنيا من كان شديد التأثر بحال الانفتاح؟ أحد مثل خباب رضي الله عنه، يقول: "لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوَ بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِالْمَوْتِ" السبب ما حصل في الدنيا من انفتاح ولهو يخاف به على قلبه والفتنة.

يعلل: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَضَوْا وَلَمْ تَنْقُصْهُمْ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ" وهنا أمر غاية في الخطورة؛ خباب رضي الله عنه يرى أن الاشتغال بالدنيا واللهو بها والتنعم بها كأنه ينقص حال الإنسان من جهة الآخرة، يقول عن نفسه: "وَإِنَّا أَصَبْنَا مِنْ الدُّنْيَا مَا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ" يعني أتانا من الدنيا توسع ما لا نجد له موضعًا إلا التراب بمعنى كثرة ما وصلهم وانفتاحه إلى درجة أن هناك أشياء كثيرة لا ينتفعون بها: "لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ".

وسيتبين لنا إن شاء الله غدًا ما معنى "لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ" من جهة أن الأطماع مهما كثرت لا تنتهي، فما للإنسان إلا أن يموت فتنقطع أطماعه وإلا الإنسان إذا بقي طامع سيزيد طمعًا مرة بعد مرة ولا يتوقف طمعه.

بهذا نكون انتهينا بالإجمال من الباب الذي عنوانه: "بَاب مَا يُحْذَرُ مِنْ زَهَرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا".

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.